شجرة الكرز فى الشعر اليابانى

مازال عبق الفن القاتم يشيع فى الوجدان منذ سرى فيه لأول مرة على عهد الصبا الباكر من حدائق طاغور فى "أناشيد جيتا نجالى" ومن البحيرات المترقرقة فى أشعار پ.ب شلى وكيتس وبايرون وورد ثورث ومن الطبيعة الفرنسية الساحرة فى انعكاسها على "البحيرة" — قصيدة لا مرتين الخالدة — ومن ربيع بغداد وأرباضها فى معزوفات ابن الرومى المتفردة فى التغنى بجمال الحياة فى حركة الإنسان والوحش والطير والزهر والنبات فى موسم الخصب والنماء ، ومن بساتين المنصورة على البحر الصغير — يوم كان — وسحر شجيرات ليمونها وريحانها فى دواوين شعرائها الرومانسيين الكبار : م.ع. الهمشرى ، وابراهيم ناجى ، وصالح جودت . لكم سحرتنا الأشعار وأنقذتنا من قساوة العيش ومرارة الزمان .

وها هى ذى زهرة العمر تميل إلى الذبول ، ولكنها تتحول إلى زهرة كبيرة تظل من غصن القلب فيعيننا شذاها البكر دائما على مواصلة الحياة ، ومجاهدة أشواك البشر والقدر ، والتبشير بالفجر الذى تتدانى خطواته المضيئة كلما تكاثفت الظلمات .

وزهرتنا المتقدة لا تستمد وجودها وبضارتها من عناصر خارجية معزولة عن الأحياء من الناس ، وإنما تستمدها من التربة والهواء والماء والضياء بعد أن تتحول فى قلوب الشعراء الخالدين وبين أناملهم الوديعة إلى نغم جميل .

وكان قلبى هو الشجرة التى حملت زهرتى الغالية ، ظامئا إلى نبع جديد ، وتلفت حوله فإذا بغابة عذراء لم تطأها أقدام كثيرة تلوح لعينيه عالما كاملا رفافا بالرؤى والأحلام ، مشكلا من الألوان والتكوينات والموسيقى والأشعة والظلال الراقصة ، عالما من الشعر نبت فى أرض الشمس المشرقة ، وسقته جزرها المتناثرة بأمواه خلجانها الأسيوية المتعرجة السابحة فى ضوء القمر ، عالما من وشى شعراء يذوبون وجدا بوطنهم وحبا للإنسانية .

إنهم شعراء من اليابان أوتوا فى إنتاجهم الفنى نكهة خاصة يتفردون بها كما تتفرد الطبيعة فى بلادهم بقسماتها المتميزة ، ومثلما تختص دورهم بطابع خاص ، وتأسرهم عادات وتقاليد عريقة لا يشاركهم غيرهم فيها سواء فى المأكل أو المشرب أو الملبس أو الزينة أو فى العلاقة بين الرجل والمرأة أو غير ذلك من ظواهر السلوك الاجتماعى التى تضفى على اليابانيين سمات يتفردون بها .

وأول ما يسترعى النظر ويؤنس القلب فيما تقدم هنا من نماذج لشعرهم ولعهم بالطبيعة ولمّا يبلغ مرتبة التقديس واستغراقهم فى تأملها استغراق العابد المتصوف ، دون أن تفوتهم مفاتنها الحسية التى تنفذ إلى البصر والسمع والفؤاد أو يغيب عنهم ما تثيره من وقدة الفكر وتوفز الخاطر .

ولعل سلطان الطبيعة فى الجزر اليابانية مما يتجلى فى تقلب الأرض والجو وأثرها العميق فى حياة الفرد والجماعة قد صهر الإنسان اليابانى فى كيانها ، فأصبحت روحه جزءاً لا يتجزأ منها ، وإن كان جسده لم يخضع لها إلا قليلا وبقى محتفظا بمقوماته البشرية ، وصموده فى وجه الطبيعة فى إبّان غضبها . ومن ثم تمثّل الشاعر اليابانى خصائص قومه واستطاع أن يمتص أجمل المعانى التى توحى بها الطبيعة ليعكسها حبا وجمالا وسلاما تملأ أشعاره بالتفاؤل ، وأن يعبر أيضا عن حزنه لجنايتها إذ تثور على الأحياء فتمتلئ أشعاره أيضا بالأسى الشفيف ولكن بغير تشاؤم لأنه يصدر دائما عن حب الحياة ، والحياة دائما أقوى من الموت ، والطبيعة فى حبها أعمق منها فى بغضائها ، والوجود يتجدد ويتوالد .

ومن أبرز مظاهر الاتصال العميق بين الطبيعة والإنسان فى اليابان شيوع الروح الكونى أو ما يعبر عنه بوحدة الوجود فى أشعار اليابانيين . ويبدو شاعرهم فى قصائده عالما بأسره كأنما قد حل فيه روح الطبيعة ، فتنفّسه إذ يشهق أو يزفر عبير زهرة ، كما أن خفيف الورقة فى مهب الريح خفقة .

فلا غرو أن تكون القصائد التى نعرض لها ذروة فى العطاء الشعرى ، لما تمتاز به من بساطة ورقة وشفافية ومن عمق فى الوقت نفسه . فالإحساس الموهف والفكر الصافى النافذ يعتنقان فى نسق رفيع دون أن يطغى أحدهما على الآخر ، والمدركات الحسية والمعنوية تستويان فيما تتركان من أثر .. والمسحة المحلية الملحوظة فى هذا النتاج الشاعرى لا تضيّق من آفاقهم بل إنها على العكس من ذلك تؤدى إلى استشرافهم آفاقا إنسانية رحبة ، لأنها ناجمة عن الأصالة والتجربة الصادقة واستيطان العالم بأسره واحتضان البشرية جمعاء .

وهكذا يلمس القارئ المتذوق لهذه القصائد أنها مزيج فريد من الشعر والفلسفة ، من الاستمتاع بالطبيعة والتأمل فى حكمة الخلق ، أو من التأمل الخارجى

والداخلى معا . فهم إذ يعبرون عن ذواتهم إنما يعبرون عن نفس الإنسان المطلق ، فالأنا والغير شئ واحد . بل أنهم إذ يصورون الطبيعة لايبثونها نجاواهم ويشاركونها أفراحها وأحزانها فحسب وانما يستنطقونها ليدور بينهما حوار بين كائنين من الأحياء . فهم يقظو الحواس ، متنبهون لكل خلجة من خلجات الطبيعة ممثلة فى طينها وصخورها وأمواجها واشجارها وفى طيورها وحيوانها .

وأغزر ما يكتبون وأجمله مايستوحونه أدق الحشرات ، وأصغر الحيوانات ، وما خف من الأطيار واستدق من النباتات فهم يسوون بين الكبير والصغير من المخلوقات لا تعاطفا فحسب ، وإنما إدراكا لجوهر الأحياء والاشياء . فالحياة عندهم مقدسة أيا كان وعاؤها ، بل إن الوجود حتى فى الجماد مستوجب للتوقير وتلك قمة الإحساس النبيل ، والفن الإنسانى الأصيل .

كما يلمس القارئ لهذه التجارب الشعرية العميقة أن أصحابها قد وهبوا ملكة الشعر الحقيقية وأدواته النادرة حتى اصبح يجرى على أطراف أصابعهم . فقد جمعوا فى شعرهم خلاصة الفنون جميعا ولا سيما الموسيقى والرسم التشكيلى ، ولانعنى بالموسيقى هنا الوزن أو العروض فليس بين أيدينا نص القصيدة فى لغتها ولا فى قدرتنا أن نقرأ اليابانية ، وإنما نعنى الإيقاع الداخلى الناشئ عن التناسق والتناغم .

ولا شك أننا لم نكن لنضع أيدينا على تلك النماذج الممتازة من الشعر اليابانى ، ونتذوق مما حفلت به من آيات جمالية وإنسانية لولا الترجمة القيمة التى قام بها الأستاذ عدنان بغجاتى فى كتابه " رؤية شرقية " .. وسوف نتخير بعض القصائد لتمثيل الخواص التى أشرنا إليها وإن كانت جميعا تقترب من مستوى واحد من حيث هذا التمثيل ، وإنما الخلاف فى الأسلوب بين شاعر وآخر ، بل إن مسافة هذا الخلاف تضيق فى النصوص المترجمة — بقدر ما تضيق المسافة بين اليابانى والاخر فى نمط الحياة .

قصائد كوبوتات البرق

وسوف يلاحظ القارئ أن التجربة الشعرية مكثفة بحيث لا تتجاوز القصيدة فى كثير من الأحيان عدد أصابع اليد الواحدة ، مما يذكرنا بالقصيدة الغنائية الاسبانية التى تدونها المغنية — إذ تؤديها — على أنامليها . وهذا التكثيف ينم عن رغبة الشاعر فى التعبير عن الجوهر دون المظهر والفضول ، أو عن الروح الكلى للوجود ، وكأنه تصور الوجود قلبا فرأى أن الشكل التعبيرى المتعبيرى

المناسب لتصوير القلب هو تصوير الخفقة أو النبضة ، فجاءت القصيدة قليلة الجرم كأنها روح بلا جسد كيما تلمس لب الأشياء وتبلغ قلب الإنسان . وهى بذلك أيضا تتفق مع الخلق اليابانى حيث دقة الحجم ، وتناسق الأعضاء ، وهمس الصوت ، ونعمة النسيم التى تشى بالجمال وتغنى بالتلميح عن التصريح . كما أن حفل القصيدة بالألوان كأنها حورية ربيعية مراة للطبيعة ذات الأقواف المشواة والنقوش المطرزة البهيجة .

وقد استوحى الشعراء قصائدهم — التى اخترناها — من شجرة الكرز أو زهرها - فإذا كانت هذه الشجرة قد ألهمت تشيكوف إحدى روائع الأدب العالمى وهى مسرحية " بستان الكرز " فان إبداع نيتسورا ، تشوفيتسو ، ايسا ، ريوتا " وله قصيدتان " ، هوكوشى ، سادابى ، على التعاقب منسوب أيضا إلى الكرز .

واخترنا عنوانا نرجو أن يكون مناسبا لكل قصيدة ، وقد أطلقنا عليها هذه التسمية لاكتمالها ، وإن بدت مقطوعة فى عدد أبياتها .

الصمت البليغ

زهرة الكرز الصامتة
ها أنت ذى تعودين
ببلاغتك العريقة
إلى مخاطبة أعماقى

إن البلاغة فى لغة الشاعر هى الإيجاز وفى لغة زهرة الكرز الصمت ، فالصمت — لا الكلام — هو الذى ينفذ إلى الأعماق .

المرح فوق الجبل

الناعورة المرحة
تصب فى الوادى
أوراق تيجان
كرزات الجبل

مازالت زهرات الكرز تغطي الأرض وتعلق على الجبل حتى المساء .. وهنا هي ذي تعاود اليعبرة اليابانية كما كانت تعاود ذات اليوم ذي تعاود يعبرات المحبين قديما .. ولكن اليوم هنا هو اليوم هناك ويعبرة اليوم الساخرة خالدة أبدا .. خلدها الفراغة وخلدها " تشايكوفسكي " : و " روكا " الشاعر الياباني في أغنيته عن أزهار الكرز :

يوجد بيتا تسبح ..
تلمس بصدرها الثابت
يعبرة
من أزهار الكرز

وقد عاش " ريو " الحياة في ثلاث : إحداها أزهار الكرز أيضا .. وقد صحبه في رحلة العمر كلها . لم يتخلف عنه .. والآن إذ تلوح نهاية العطاف سيخص قرير العين على شفتيه أغنية وداع غير حزينة لأن أحلامها ستوحي وحدته :

ثلاثة أشياء رائعة :
ضوء القمر .. أزهار الكرز
والآن أنا ماش
أبحث عن الثلج الصامت

إن " ريو " ذاهب بنفسه إلى نهر بلا عودة . إلى الثلج الصامت . ولكنه سعيد إذ كان الثلج من رفاق رحلة الحياة الثلاث وإن كان من قبل أن تأتي النهاية الساكتة معنيا .

وسيلحق بالموكب " انون " بلا ندم . ولا أسى . ولا دموع . لأنه أحب وكان محبوبا . عرف الحب في نظرات أزهار الكرز ولحن العندليب . وعرفه الحب .. ولذلك سيذهب مطمئنا وسيرجع راضيا مرضيا :

عرفت أحباء .
أزهار الكرز
والعندليب
سأنام راضيا

يالله من سر إذا الكروان نبه أزهارها سرى أريج الماء الصافي
الناعور وتضاحك في ضوء الشاطئ . وبعض الوحل عالما بكلام أزهار الكرز .

يوشيتو

في بعض المدينة
وهو يتأمل
أزهار الكرز
يسمع الأصوات الصادرة

لكم تشبه أزهار الكرز نفس الإنسان الوداعة وتعرف عليه بأريحية السلام .. تراها تعرف السلام ؟ فتستأمن أزهار الكرز إ

يوشيتو

أسحابة تهبط ؟
آه إ .. جبل
يوشيتو ...
يتأمل زهر الكرز

يالتورية إ يوشيتو - الجبل - هذا الكائن الراسخ . ماله يبدو وكأنما يتحرك في الطريق إلينا إ .. لا . إن زهر الكرز قد أخفى غضون العارد العملاق وأصبح رداء للطبيعة كلها . بعلا الأفق حوالينا وأمامنا . فكاد الجبل أن يتحول إلى سحابة مزهرة تمتد على مدى أبصارنا إلى مواطئ أقدامنا .. وتهبط إلينا من عل .

ما أنهى الغمامة المعلقة على الأفق إ ... راية بيضاء أو جناح حمامة ؟ بل هو سحر الجبل المتلألئ بأزهار الكرز في عيني شاعره " ياشو " :

غمامة بيضاء من الضباب
فيض أزهار الكرز البيضاء ..
سفوح الجبل المتلألئة

فى الصقيع

تبا لهذا العالم القلق !
ثلاثة أيام تمر
يا غصن الكرز المنبوذ
وأنت عار

لكن الشاعر – من فرط إحساسه بالشجر – وقد تحول إلى غصن كرز عار فى مهب الريح بعد أن دهمته عاصفة الصقيع فأنتزعت بأصابعها الجليدية أوراقه وجردته من ثماره، وتركته منبوذا بعد أن أحتضنه الكون حينا بحنانه وغمره بدفئه . فما أقسى الزمن المتقلب والطول أيام العناء .. ثلاثة أيام ومازال الغصن .. ومازال الشاعر – عاريا !!

زهرة على الرماد

كوخى المحترق .. رماد
لكن شجرة الكرز المزهرة
فوق تلى
رائعة

لأن الحياة فى الأقوى دائما فإن النور على شجرة الكرز جميل فى عينى ، وسوف أبنى كوخا جديدا بديلا من كوخى الذى التهمته النار .

الحور والعاصفة

الآن تطير ..
ملايين الحوريات
من شجرة الكرز
يا عاصفة إله الحرب الهوجاء

ويل للإنسان من الحرب ، وكم عانى الشعب اليابانى حتى كان من نصيبه وحده أن يكون من أبنائه ضحايا أول قنبلة ذرية مشئومة . ولكنه مع ذلك – بل لذلك – يحب الحياة ويغنيها على أوتار شاعريه الذين يحلمون بالفردوس والحور على الأرض البعيد أن عاصفة الحرب النكراء تصيب صيحتها الكائنات جميعا ، حتى الفراشات تلك الحوريات المجنحات تطير مذعورة – ويا للحسرة – بعيدا عن شجرة الكرز .